«الضيعة الجنوبية» مائية لمصطفى حيدر

مصطفى حيدر في «مائيات الذاكرة والجنوب» حوار الارض والسماء والحركة اللونية

الفنان التشكيلي مصطفى حيدر في معرضه «مائيات الذاكرة والجنوب» الذي نظمته لجنة «ايام الثقافة والفن» في غاليري دار بخعازي الاشرفية، يحمل في مائياته الواحدة والستين، هم الجنوب في الق الماضي، ومعاناته الحاضرة في القلق الفني من خلال قصيدة البحث اللوني التي تعالج مناظر ساحلية وجبلية فيها البيوت، ذات الطابع اللبناني الجنوبي، تشمخ وسط اجضان الطبيعة، فوق الهضاب، كانها حوار بين جمال الارض ووضوحها، وبين سحر السماء وغموضها.

هذا السمو في الحركة اللونية، وفي انجذاب الاشياء الى فوق، يوحد، في معظم الاحيان، البحر والياسة والفضاء فتفقد داخل بينها المسافات، وتمحى الحدود لتوتسم هيكلية العمل في حوار صامت، ووشوشة ابدية كما لو كانت مائيته تالفاً بين الدهشة والخوف، او بين الذاكرة والواقع.

في اعماله التشكيلية يلتقط مصطفى حيدر عافية المشاهد من كل الجنوب، من صور وعدلون، ومن الليطاني والزهراني، ومن النبطية والناقورة، ومن قرى لبنانية جنوبية في محاولة للحفاظ على ما تراه عينه، ويشعر به فؤاده، وتضج به مخيلته، في حالة من الحركة الدائمة تشبه حركة الماء وتحولات الغيوم، وكان الفنان يخاف على مناظره من الضياع فيحاول استرجاع تلك الحالات والذكريات التي سيطرت على امتداد اعماله بحرية ورشاقة، والتي اعطت المائية بعدا انسانيا تخطى المنظر المرئي الى التأملات والاسترسالات الشكلية والمضمونية.

مائيات الذاكرة والجنوب اختلفت احجامها وتقاربت مضامينها، فهي ليست وليدة مرحلة تجريبية واحدة، ولا مرحلة زمنية واحدة، وان كان الجامع بينها رؤية شكلية ورؤية فنية واسلوبية تشكيلية، وهذا ما اضفى عليها مزيدا من الصفاء الذي يعبر عن عمق الاحساس الذي جعل المرسومة قريبة من المناخات المعنوية والضبابية التي تسمو بالسهل الى حدود الجبل وبالجبل الى حدود السماء بحيث يصير اللون جدارا (شريط الصمود) او يصير جرحا في السماء (حنين) او اختصارا لمعاناة انسانية كما في «من رأس الحمرا الى الناقورة».

مصطفى حيدر: الذاكرة والجنوب

المناظر الرؤيوية التي التقطها مصطفى حيدر قد تبدو واحدة او متكررة، ولكنها في الحقيقة ليست ذاتها، فلكل منظر مناخه وذاكرته وصياغته، لان الفنان يراد ان يعمق تجربته اللونية، وطريقته التشكيلية من خلال بترسيخ فكرة تتعلق بخصائص الضيعة الجنوبية المرتبطة بموقع معين (قصيدة الوجع)، وبالزمن البعيد (صور التاريخ) والبطاقة الى الافق البعيد (الجنوبي في عز الشمس).

المضمون والاسلوب

الحركة التشكيلية في اعمال الفنان حيدر تطبع مائيته بطابعين: مضموني واسلوبي وفي كلا هذين البعدين يظهر هاجس التاليف الفني بحيث تقوده رشاقة الماء، وشفافية الالوان، الى مزج المادي الملموس بالمادي المحسوس في محاولة للقبض على مرحلتين متباينتين وحالتين مختلفتين كما هي الحال بين الماضي بكل ما فيه من صفاء، والحاضر بما فيه من معاناة.

هذا التوحد بين الذاكرة والواقع يعكس مدرسة حيدر الفنية فهو قد يبدو كلاسيكيا من حيث المضمون (طبيعة، بيوت...) ولكنه ليس كلاسيكيا من حيث الاسلوب التعبيري التشكيلي. انه فنان انطباعي في القسم الاكبر، وتجريدي في عدد اعماله (ذاكرة الجنوب، حنين)، وهو لا يهتم للتفاصيل والخطوط لان الوانه الزاهية ترسم ولا تحدد، تطلق ولا تقيد، ولانها في الوقت ذاته خطوط واشكال ومسافات وحدود تبقى الرسمة مفتوحة على التخيلات والمشاعر.

الالوان في مجمل الرسومات الحيدرية زاهية ورشيقة، والغربة الفنية سريعة ودقيقة ومعبرة وليس فيها تكرار، وهي تاخذ شكلها بحرية تتجاوز الحد لتتداخل مع حالة الحب وحالة الخوف، ومع الامل والالم وهذه الانسيابية اللونية تبدو هادئة مطمئنة ولكنها في الحقيقة تخفي احاسيس ومناخات يتركها الفنان لنفسه مغطاة بالاقنعة اللونية.

هذه التقنية اللونية الهادئة، وهذه الاسلوبية البعيدة تسيطران في معظم رسوماته وتجعلان من المنظر المرئي منظرا غارقا في ابعاد الرسمة او في الذاكرة، بحيث يصير اكثر واقعية، ويتخذ منحى انسانيا. والالوان الطاغية هي الازرق والاصفر والزهري، تصير في حالة ثانية اكثر كثافة فتتحول الى اللون البنفسجي والرمادي والبرتقالي ثم تزداد لتعطي انطباعا ماساويا فتصير الخطوط بلون البرق او بلون الانفجار او اشتعال النار (ذاكرة الجنوب).

اختصار الحركة

ضربة مصطفى حيدر الفنية سريعة، رشيقة، وجريئة، فالفنان يتجرا على الاختصار في الحركة اللونية المائية، وهذا الاختصار هو الذي يعطي الرسمة بعدها الفني، وهو الذي ينقل الواقع الى الواقع، والذاكرة الى قلب الواقع، في محاولة للبحث عن اسلوب فني يترك لذاته حرية التعبير الانطباعي والتجريدي في وقت واحد.

المراة في «مائيات الذاكرة واللون» لها حضورها الخاص اسلوبا ومضمونا، فهي عند حيدر ظاهرة تقوم في وجه العمل الفني وهي قريبة وبارزة تكاد تخرج من اديم الرسمة، والمراة في رشاقتها الجمالية الجسدية، قوية كقوة الرغبة والنظرة، وعريها يعكس الحقيقة التي تجمع بين التجريد والواقع، وبين التصوير الخارجي والايحاء الداخلي، من خلال المعالجة الفنية القادرة على الولوج الى اعماق الكائن الانساني.

مصطفى حيدر في تجربته الفنية له اسلوب خاص. وهذا الاسلوب يقوم على الاختصار والرشاقة والجراة، كما وعلى تصوير المعاناة الانسانية، من خلال الغوص الى اعماق الذات لان ذات الانسان مقياس الزمن.

ايلي اسطفان